

2020

السخرية الأدبية / بحث في الأشكال والحدود

نوال بن صالح

قسم الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#)

Recommended Citation

"السخرية الأدبية / بحث في الأشكال والحدود" (2020) نوال بن صالح, نوال (2020) "السخرية الأدبية / بحث في الأشكال والحدود" *Dirassat*. Vol. 22 : No. 23 , Article 5.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol22/iss23/5>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Dirassat* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aar.edu.jo, marah@aar.edu.jo, dr_ahmad@aar.edu.jo.

السخرية الأدبية / بحث في الأشكال والحدود

نوال بن صالح

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة محمد خيضر - بسكرة - الجزائر

مقدمة :

يقارب البحث مسألة السخرية بوصفها استراتيجية خطابية لم تخل منها متون ومدونات الثقافة العربية القديمة، أما الخطاب الثقافي المعاصر فإن السخرية تنوجد فيه بوصفها خيارا استراتيجيا، يخاطب من خلاله الساخر واقعا شديد التناقض والتركيب، من خلال أشكال الخطاب المختلفة التي لا يخلو أغلبها من ملمح ساخر، حيث السخرية في الثقافة الشعبية بنكاتها وأمثالها ومختلف أشكال تواصلها، إلى جانب الخطاب الأدبي الذي صارت السخرية بالنسبة له تتجاوز مجرد التقنية الخطابية إلى لغة عامة يخاطب بها الأديب العالم المشوش من حوله. أما في الخطاب الإعلامي فهي حاضرة بشكل واضح في المقالات الصحفية وفن الكاريكاتير وفي الباروديا الاجتماعية والسياسي، ناهيك عن حضورها في وسائل التواصل الاجتماعي.

يسعى البحث إلى تحديد مفهوم السخرية وضبطه من خلال ضبط الفرق بينها وبين أشكال الفكاهة الأخرى. كما يروم البحث مناقشة مسألة جدوى السخرية في الخطاب الثقافي العربي، من خلال تقييم أثرها في المتلقي بوجه خاص والمجتمع بوجه عام. كل ذلك من خلال تتبع نظرة الإسلام للسخرية وكيفية

استيعاب الذات العربية لمثل هكذا وسيلة خطائية وتوظيفها في أشكال التعبير الأدبية وغير الأدبية. من هنا اوجدت أسئلة البحث على النحو الآتي :

- لماذا يرتبط السخر - غالبا - بالهزء والفكاهة والازدراء ويجيد عن النقد؟

- يهل السخرية معارضة للأخلاق؟

- كيف يمكن للسخرية أن تتحول إلى أداة بناء للأخلاق إذا كانت وسيلتها اللغة المدمرة المهشمة؟

- أليس كل بناء قوي الأساس يقوم بالضرورة على الهدم؟

- هل تقبل الثقافة العربية الإسلامية السخرية مهما كان موضوعها؟ (مسألة الأديان والمعتقدات، والأعراف مثلا).

- أين تقف حدود حرية الساخر؟

تملكننا البحث في أشكال الخطاب الساخر في الثقافة العربية الإسلامية بسبب قلة العناية بالبعد الضاحك في التراث الثقافي والفكري العربي بشكل عام، إذ كثيرا ما أهمل البحث الأكاديمي العربي قديمه وحديثه المتون التي تتعلق بالضحك أو تحيل إليه. وظلت هذه المتون لا تعدو الاستدعاء للحديث عن جلسات المسامرة والفكاهة المجرد بعيدا عن الموضوعات الجادة التي تُشجذ لها الأقلام وتُتخير فيها النصوص الموسومة بصفة الجد إلا فيما ندر¹، إذ لا تزال النظرة الضيقة تجهد نفسها في اعتبار الضحك ندا للجد. حتى إنه لم يرسخ في الأذهان من

¹- قد تكون تجربتنا كل من الجاحظ وأبي العلاء المعري فريدتان في مزج الجد بالهزل والنظرة غير المصنفة للخطابين.

التراث الفكري العربي إلا ما يتسم بالجد، فقد ظل هذا الموروث "الجاد" في مركز الاهتمام البحثي، في حين أقصيت الثقافة الضاحكة الفكاهة إلى هامش الفكر، حتى أمست السخرية مزية لكل ما هو شعبي سوقي. هذا عن الفكه والضحك بشكل عام، أما إذا تعلق الأمر بالسخرية تحديدا، فإن الأمر يزداد صعوبة وتعقيدا إذ يجيل المصطلح "السخرية" على دلالة أخلاقية وثيقة الصلة بالثقافة العربية الإسلامية. من هنا لا تزال مقارنة السخرية تتلبس بوشم التوجس والحيطه بسبب ملامحها غير الأخلاقي فيما رسخ من القيم الأخلاقية العربية الإسلامية.

إن اختيارنا للسخرية موضوعا للبحث يمثل محاولة لبسط مدى استيعاب الثقافة العربية الإسلامية لهذه الاستراتيجية الخطائية، وأثرها في تكوين الوعي النقدي الثقافي العربي والإسلامي. وإن كانت الدراسات التي عالجت السخرية من ملامحها الأدبي والبلاغي غير قليلة، فقد شكل الأدب مدخلا نفذت منه الرؤى حول السخرية، نذكر من بينها: "السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري" لنعمان محمد أمين طه، و"السخرية في أدب المازني" لحامد عبده الهوال، وكتاب "سيكولوجية الفكاهة والضحك" لذكريا إبراهيم، و"أدبنا الساخر" لنبيل راغب. كما عالجت كثير من الدراسات الحديثة السخرية من جانبها المفارق، مثلما فعلت نبيلة إبراهيم في كتابها: "فن القص في النظرية والتطبيق" حيث أفردت فصلا للمفارقة (وتعني بها المفارقة الساخرة). وهذا الملمح في السخرية هو نفسه الذي عالجه محمد العبد في كتابه "المفارقة القرآنية". ومن المراجع التي عنت بالسخرية في أدب الرحلات كتاب "العين الساخرة، أفتعتها وقناعاتها في الرحلة العربية" لعبد النبي ذاكر. إذاً حتى وإن كانت الأبحاث التي قاربت السخرية ليست قليلة إلا أننا لاحظنا أن هذه المراجع، قد قاربت السخرية في المتون الأدبية المختلفة

قديمها وحديثها في أبعادها الأسلوبية والبلاغية والأدبية والسيكولوجية، لكننا لم نجد مرجعا قارب السخرية بالدراسة من ملمحها الأخلاقي، عدا بعض المقالات النادرة منها بحث جابر عصفور المنشور في مجلة العربي بعنوان "سخرية المقموع". تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تعرض لمفهوم الخطاب الساخر في وعينا الثقافي العربي والوعي الإنساني بوجه عام، ومحاوله إزاحة الالتباس عن مفهوم السخرى نفسه، إلى جانب مناقشة الجدل الذي تثيره السخرية بين وظيفتي الهدم والبناء. مستفيدين في ذلك باليات نظريات القراءة والتحليل الأسلوبي.

1- مصطلح السخرية: بحث في المفهوم والأبعاد :

يطرح مصطلح السخرية -من البداية- إشكاليةً حول مفهومه ودلالته، ولعلّ العودة إلى أحد المعاجم اللغوية العربية، وتتبع المعنى المعجمي لكلمة "سخرية" لا يسعف تماما في فهم طبيعة المصطلح وحمولته الدلالية، وإدراك آليات اشتغاله. نظرا لتشعب مفهوم السخرية وتماسه مع مصطلحات شبيهة بما يحيل إليه السخر، من تهكم وهزل وهزل وازدراء وغيرها من المفاهيم.

إن نشأة مصطلح السخرية ارتبطت بالمبحث الفلسفي أساسا، فقد هيمنت شخصية سقراط ومنهجه في المحاوره على مفهوم السخرية عند المؤرخين والبلاغيين والفلاسفة. والسخرية السقراطية منبثقة من المحاوره، فلا يستقيم لها تأثير ولا معنى إلا ضمن وضعيات حوارية. وسخرية سقراط هي "فن الإقناع" بامتياز، لأنها لا تسعى إلى تحقيق الغلبة على المخاطب سعيا إلى إقناعه وجعله يعرف نفسه بنفسه من خلال الوقوف على وهن يقينياته¹. لمن بالرغم من ارتباط السخرية

¹- ينظر زهير مبارك: السخرية في الرواية العربية، مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، قابس، تونس، ط1، 2011، ص19-21.

بمحاورات سقراط لضحاياه حتى يخلخل مسلماتهم، إلا أن السخرية وجدت في كل العصور، وفي جميع الثقافات لأنها شديدة الارتباط بما هو إنساني.

إن السخرية من أرقى أنواع الفكاهة إذ إنها تحتاج إلى دهاءٍ ومكرٍ وخفاءٍ. "والسخرية استراتيجية خطاب مقموع، يقاوم به المقموع قامعه، يزع عنه برائنه، وذلك على نحو يخلع عن القامع أقنعتة الخيفة، ويجيله إلى كائن يمكن مقاومته والانتصار على أدوات قمعه التي تتحطم مع بسمة السخرية الماكرة، التي هي نوع من المقاومة بالحيلة"¹. وليس من المصادفة والأمر كذلك، أن يؤدي دال "سخرية" وجذره ومشتقاته معاني الاستهزاء والاحتقار والإهانة والترويض والتلاعب، فضلا عن التنكيت، تقول "سَخِرَ منه وبه سَخْرًا وَسَخْرًا وَسُخْرًا: هَزِيءٌ، والاسم سُخْرَةٌ وَسُخْرِيًّا وَسُخْرِيَّةً، وفُلَانٌ سُخْرَةٌ وَسَخْرَةٌ، يضحك منه الناس، ويضحك منهم، وهو مسخرة من المساخِر"².

لقد حامت مشتقات الجذر "سخر" حول هذه الدلالات وأدبتها في آيات مثل: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾³ وقوله تعالى: ﴿رُؤْيَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁴ فالآيتان تشيران إلى معنى الاستهزاء والإهانة التي لا تفارق دلالة التحقير، وذلك في موازاة الآية ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾⁵ التي تؤدي معنى الترويض والتوجيه إلى أداء غرض أو غاية، والتسخير: جعل الأمر مطيعا كما في الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ

¹- جابر عصفور: "سخرية المقموع" مجلة العربي، العدد 604، مارس 2009، ص 76.

²- ينظر ابن منظور: لسان العرب: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، مادة (سخر).

³- الحجرات، 11.

⁴- البقرة، 10.

⁵- الرعد، 02.

داود الجبال يُسبِّخَنَ والطير وكنا فاعلين¹ ومثلها قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾²، وتأني الصيغة الصرفية للدلالة على المبالغة في السخرية كما في الآية ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾³.

والحقيقة أن السخر يرتبط بعدد المصطلحات البلاغية التي تحيل إلى دلالات قريبة، ولعل أقرب هذه المصطلحات: التَّهْكَمُ هو استخدام الكلام للتعبير عن معنى مغاير للمعنى الحرفي بقصد السخرية، وتستخدم نجلاء حسين الوقاد "التَّهْكَمُ" مرادفاً لمصطلح (Irony) الإنجليزي، "والتَّهْكَمُ ليس مجرد أداة أدبية وفنية لصياغة الأعمال الأدبية، بل يمكن أن نقول أنه بمثابة منهج استطاع أن يشكل رؤية الأدباء للحياة ذاتها، وبالتالي فإن استخدامهم للأدوات الفنية المتعددة للتَّهْكَمُ يخضع لهذه الرؤية، فالتَّهْكَمُ يتحكم في كل من الشكل والمضمون، ويمثل ركيزة أساسية تهض عليها أعمالهم"⁴ أما بلاغياً "فالتَّهْكَمُ من تَفَعَّلَ من قولهم تهكمت البئر، إذا تساقطت جوانبها وتهدمت"⁵ وهو تعبير عن شدة الغضب، لأنَّ الإنسان إذا اشتدَّ غضبه فإنه يخرج عن حدِّ الاستقامة وتتغير أحواله. من نجد مصطلح التَّهْكَمُ شديد اللصوق بالاستهزاء من حيث رغبته المقصودة في الإيذاء اللفظي والنفسي ويفرق أبو هلال العسكري (ت 400هـ) بين الاستهزاء والسخرية بأنَّ "الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه. وذلك أن تقول: استهزأت به، فتعدى الفعل منك

1- الأنبياء، 78.

2- البقرة، 163.

3- الصافات، 14.

4- نبيل راغب: الأدب الساخر 45، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

5- ابن منظور: لسان العرب مادة (هكَم).

بالباء، والباء للإصاق كأن أُلصقت به استهزاءً من غير أن يدل على شيء وقع السخر من أجله. ويجوز أن يقال: أصل سخرت منه التسخير، وهو تذليل الشيء، وجعلك إياه منقاداً، فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمناقذ لك".¹

وعليه نعتقد أن في التَّهْكَم ملامح السخرية، أو آلية من آلياتها وهو الهدم، لكن السخرية لا تقف عند مرحلة الهدم. ولا الهدم غاية من غاياتها. فالسخرية تسير في اتجاه إيجابي بناء، واتجاه سلبي هدام، والهدم مرحلة حتمية في إعادة البناء، وأياً كان اتجاهها وشكلها، ومناسبتها فإنّ طعم القوة هو نكهتها الخاصة، لكنّ هذه القوة ليست هي نفسها في كلّ مجالات السخرية، إذ تتفاوت درجة حدتها وقسوتها بحسب ما يقتضيه السياق، فهي تبدأ بما يعرف بالغمز واللّمز، اللذين غالباً ما يردان في إطار من اللّهُو والطَّرْف والضّحك، يبعدهما عن الإصابة المباشرة الجارحة، ويُلطَّف وقع السخرية في التّمس، هذا الّوقع الذي يُستشَفّ استشفافاً، ثم تقوى السخرية شيئاً فشيئاً حتّى تصبح هوجاء، مُهَشِّمَةً، تنال من هدفها دون مواربة، وعندها تسمى تهكماً وهجاءً² "أما الهزل فهو يكاد يكون مطابقاً لمفهوم التَّهْكَم وهو من أقدم أنواع السخرية الهازلة ويعتبر أشدّ أنواع السخرية مباشرة وحده، لأنه يعتمد على التّقد اللّاذع والهجاء البذيء"³. والحقيقة أن ما يجمع بين هذه الأشكال هو خاصية الضحك. لكن الهدف من الضحك ليس نفسه في كل استراتيجية خطابية مما سبق. وقد بين يبار

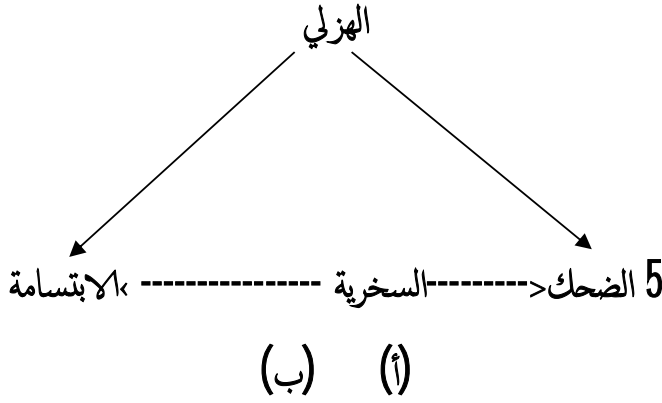
¹- أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة 225، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980.

²- للتوسع ينظر سيمون بطيش: السخرية 17-18. في أدب مارون عبود، دار مارون عبود، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

³- سوزان عكاري: السخرية في مسرح أنطوان غندور30، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، دط، 1994.

شوانياز (*Pierre Schoentjes*) وظيفة الضحك في السخرية فقال: "فإذا كانت وظيفة السخرية أن تسأل، فإن وظيفة الضحك أن يسلي"¹.

أما فيليب هامون (*Philippe Hamon*) فقد أدرج السخرية ضمن مجال الهزلي (*Le domaine comique*) جاعلا السخرية تتوسط قطبي الضحك والابتسامه موضحا ذلك من خلال الخطاطة الآتية:²



كما يمكن أن تكون السخرية وسيلة لمقاومة الحمقى والأشرار والمُعْوجِين، "وهذه السخرية هي التي تحول بيننا وبين كراهيتهم، لأنَّ ضحكنا منهم وسخرتنا بهم تخفف من غيظنا وغضبنا عليهم"³

وتشمل السخرية الفنون التشكيلية والآداب، معتمدة في كلِّ أحوالها على المراوغة التي تُبطن غير ما تعلن، وتتلاعب بين مستويات القول وتعدد دلالاته،

1- *Pierre Schoentjes: Poétique de l'ironie Edition du seuil, 2001 P.222.*

2- *Philippe Hamon: l'ironie littéraire Essai sur les formes de l'écriture oblique, Hachette supérieur 1996, paris, cedex. P.46.*

3- أحمد الحوفي: الفكاهة، أصولها وأنواعها في الأدب 177، نهضة مصر، دط، 2001.

مبدؤها الدافعي رفض ما هو قائم ومهاجمته، فعدوانيتها المروعة قرينة نزعة شك ومساءلة. يقول "عبد القادر المازني" محاولا تعريف السخرية أو الأدب الساخر: "ما هو السّخر، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب؟ إنّ هذه الوجهة هي -بالبداهة- كل ما يعيننا، إنه الكلام عما يثيره المضحك أو غير اللائق، من الشعور بالتسلي أو التفرز، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا"¹.

وفقا لهذا التعريف تتساءل "سها عبد الستار" عمّا إذا كان السّخر من فنون الأدب؟ حسب الاصطلاح المحدد لفنون الأدب من شعر ونثر وخلافه، وهل لا يثير السّخر سوى التفرز فقط؟ كما يشير إلى ذلك المازني. وإذا كان السّخر أو السخرية سمة أسلوبية يتميز بها بعض الأدباء، فإنّ أساليبه وأدواته لا بدّ وأن تختلف من أديب لآخر.² إلى جانب اختلاف أساليب السخرية، تختلف أشكال تجليها ودرجة حدتها.

2- مسألة السخرية والإسلام :

ليس من السهل الفصل بين الدين والأخلاق في الثقافة العربية الإسلامية، إذ الأخلاق هي شديدة الارتباط بروح الدين تستمد منه قيمها، وتعول عليه في انتشارها والإيمان بها. من المؤكد أن موقف الإسلام من القيم والمثل والممارسات التي كانت سائدة في العهد السابق (الجاهلية) لم يكن موقفا واحدا، فقد استبقى ما كان يتماشى مع روحه، وهذب ما أمكن تهذيبه وألغى كثيرا مما كان متنافيا مع الصورة المثلى التي أرادها الله ﷻ للمجتمع.

¹- ينظر عبد القادر المازني: حصاد الهشيم 257، المطبعة العصرية، ط6. مصر، 1960.

²- ينظر عبد الستار السطوحي: السخرية في الأدب العربي الحديث 53، عبد العزيز البشري نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 2002.

كان الحديث عن السخرية ولا يزال موضوعاً محفوفاً ببعض الحرج، إذ يستدعي الموقف الأخلاقي بالضرورة، فالسخرية بما هي رديفُ الهزء والصحك من الناس، أمرٌ منهبيٌ عنه وفق التصور الديني، باعتبارها نوعاً من الاستعلاء والتسلط والإذلال. لكن السخرية من منحى غايتها الانتقادية، فنّ تعبيري يتجاوز الشكل العابث اللاهبي، إلى مدلولات إنسانية عميقة، تستحق البحث والتحليل.

إن هذا الخوف الذي يلتبس بمفهوم السخرية مرجعه إلى نهبي القرآن الكريم بشكل صريح -في عدد غير قليل من الآيات- عن السخرية، تلك السخرية التي تسيطر عليها دوافع خبيثة، منشؤها الحط من قيمة الآخر، منطلقة من نفس محملة بالحقْد والكراهية والكبر، قال تعالى: ﴿ولقد استهزىء برسلاً من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾¹ فقد كان المشركون يستدعون خطاب السخرية عند سماعهم دعوة النبي الكريم ويسخرون من كل آية يأتي بها قال تعالى: ﴿وإذا رأوا آية يستسخرون﴾² وبالرغم من هذا النهي الصريح من القرآن الكريم عن السخرية إلا أنه لا يخفى وجود الأساليب الساخرة في المتن القرآني نفسه، فقد أخبر الله عز وجل عن نفسه أنه يسخر. لكن السخرية القرآنية ليس غايتها الهزل لذات الهزل، يقول جل وعلا: ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾³

أما نظرة النبي (ﷺ) للسخرية فتحيلنا بالضرورة على نظرته إلى شعر الهجاء الذي ينضوي ضمن باب السخر الجارج. وقد كانت العرب تولي هذا النوع من الشعر عناية بالغة قبل الإسلام وبالرغم من خفوت جذوة الهجاء في عصر الدعوة المحمدية الأولى ثم الخلافة الراشدة من بعد ذلك، إلا أن هذا الغرض

¹- الأنعام:10.

²- الصافات:14.

³- سورة الطارق، 14/13.

الشعري عاد بشكل أشد قوة وقبحا مما كان عليه في الجاهلية، كان ذلك أيام الصراع السياسي في خلافة دولة بني أمية. فقد ارتبطت الفحولة الشعرية في أزمنة عربية غير قليلة بالمقدرة على الهجوم والسلاح على الخصوم والأعداء.

أما عن موقف النبي (ﷺ) من الهجاء -بوصفه شكلا من أشكال السخرية في الشعر- فقد كان موافقا لما جاء في كتاب الله، ويمكن استقاؤه من موقفه (ﷺ) من الشعر فنجد الرسول (ﷺ) لا يذم الشعر على إطلاقه، بل يذم نوعا بعينه، هو ذلك الذي يجافي روح الإسلام وتعاليمه، ويباعد بين العرب ويفرق كلمتهم، ويذكي فيهم روح العصبية بكل أنواعها وآثامها.¹ في إشارة واضحة إلى نوع خاص من الشعر، هو شعر الهجاء الذي كان الشعراء يزاجون فيه بين الفخر بالبطش والقوة والحط من قيمة المهجو، فيعلي بذلك من شأو الأنا، وبالمقابل ينظر إلى الآخر نظرة دونية تحقيرية ترفضها روح العقيدة الإسلامية التي ترفض الهمز واللمز والتنازير بالألقاب.

ويبدو موقف الإسلام أشد وضوحا من موقف النبي (ﷺ)، من ذلك النوع من الهجوم الذي يسلاح على العدو. جاء في دلائل الإعجاز أن الرسول (ﷺ) قال يوما لحسان بن ثابت: "أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته" فأنشدته قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة جاء فيها: علقم ما أنت إلى عامر الناقص الأوتار والواتر

فقال النبي (ﷺ): "يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا"² من هنا نجد هذا النوع من الهجاء حتى ولو كان قد قيل في الجاهلية إلا أن النبي

¹- عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب 94، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1986.

²- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، 312/15 مكتبة دار الكتب المصرية، دط، دت.

الكريم يعرض عن سماعه. إن الذي جعل الرسول (ﷺ) ينكر على حسان إنشاده هذه القصيدة، هو ما فيها من سباب وشم وطعن في الأعراس، فكأن الترخيص بإنشاد هذا النوع من الشعر فيه تشجيع للشعراء للعودة إلى الخوض في مثله¹.

لكن بالمقابل نجد (ﷺ) يحث صحابته من الشعراء على هجو المشركين في إطار الرد عليهم، إذ قال لحسان بن ثابت: "اهجهم -يعني قريشا- فوالله لهجاؤك لهم أشد عليهم من وقع النبال في غلس الظلام. اهجهم ومعك جبريل روح القدس"². لقد أدرك النبي الكريم خطر الهجاء على المشركين، بل عده سلاحا في مواجعتهم، بل أكثر من ذلك رأى الكلمة الساخرة أوقع في النفس من رمية النبل. ندرك من هذه الآيات والمواقف النبوية أن السخرية لم تكن مرفوضة بشكل قطعي في الإسلام، إنما تفرق السخرية بغاياتها ونوايا الساهر والمعاني الساخرة التي يتضمنها هذا الخطاب. وهي الخاصة نفسها التي أكد عليها الفلاسفة ونقاد الأدب، إذ يرتبط السخر بنوايا الساهر وغاياته.

3- السخرية والأخلاق : جدل الهدم والبناء :

"نحن نعيش عصر السخرية بكل ما تشتمل عليه من تهكم ودعابة ومحاكاة ومفارقة. وقد واکب هذا الانتشار عصر الحداثة وما بعد الحداثة، حيث بناء النسق ثم هدمه، تكوين الفكرة ثم هدمها"³. يؤكد جانكيليفيتش (V. Jankélévitch)

¹- عبد القادر هني: دراسات في النقد الأدبي عند العرب، من الجاهلية حتى العصر الأموي 72، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

²- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 18/1، ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1973.

³- ينظر شاكر عبد الحميد: "عن الفكاهة اللطيفة والسخرية المؤلمة" موقع مجلة الدوحة:

في السخرية بعدين هما: خاصيتها النقدية، وبعدها الحوارية، فهي -في نظره- وليدة تأمل عقلي ينفذ إلى حقيقة الأشياء دون أن يقدم أجوبة جاهزة، بل يبحث الوعي الآخر على خوض مغامرة البحث عن الحقيقة".¹

والسخرية الحقّة لا تكون إلاّ مع وجود التوازن الشّاق بين الجميل والقيح، والنظرة المستوعبة للطبيعة والإنسان، ومن أجل ذلك تتجلى السخرية بشكل واضح في الخطاب الثقافي العربي وغير العربي تجليها في ثقافة النخبة كما في الثقافة الشعبية. الأمر الذي يدل على حاجة اللاوعي الإنساني إلى رمز أسطوري، ينفذ الناس من خلاله إلى عمق الضحك، ينسى الإنسان على حدوده مأساته، وما تلك المفارقات اللامعقولة، التي تحفل بها الأقاليم الخرافية (...). سوى محرب رافض، يُخفي خلف السخرية المُسطحة والدعابة الهازئة أعنف مظاهر الرفض والتمرد على واقع غير مستقيم يُقصد إلى تشويبه والتندر عليه، وفضح صورته المشبوهة"². إن هذا الهدم -في حقيقة الأمر- يروم بناء واقع اجتماعي بديل. فالسخر، ذو دلالة خاصة، باعتباره ظاهرة نفسية اجتماعية، تتأثر بطبيعة المجتمع وذهنيته، ورتقي البيئة التي أفرزت هذا الموروث الساخر، فالسخرية تطال شتى الظواهر الاجتماعية، كما أنّها تستدعي أدوات الفكر، واللغة والحركة، وعناصر الإيماء المُعبر، كما تلتحم بالأغاني والأهازيج الشعبية، لتستكمل وسائلها في الرّسم والترصد، لما يبدو منحرفاً، من أجل مَسْخِهُ بطريقة كاريكاتورية، تفضح العيوب، وتجعل صاحبها ينفر من صورته، فيلجأ طوعاً إلى إصلاح نفسه، كما تكون ذات هدف تربوي، يجعل الآخرين ينتعدون عن الصورة المنحرفة، كي لا يصبحوا مثاراً للسخرية

1- Vladimir. Jankélévitch : *L'IRONIE* Flammarion; Paris, 1964; P:183.

2- عكاري: مرجع سابق، ص 38.

والضحك، الذي يأتي عقوبة اجتماعية، تقع على الممثل الخاطئ.¹ ففي عنفها، تمارس السخرية رادعا للمخطئين، حيث تدفعهم إلى اجتناب السلوكيات التي تجعلهم مادة للسخرية.

لقد لاحظنا أن جل تعريفات السخرية تتفق على القول بوجود مكون أخلاقي فيها، هو الذي يفصل بين السخرية والفكاهة الخالصة، ومع ذلك فإن للسخرية طابعا أخلاقيا محافظا، إنها تنتقد مظاهر البعد عن القيم التقليدية الراسخة: الشجاعة، الكرم، الصدق... إلخ فإن هدفها أن تعيد الإنسان إلى نفسه، إلى نسقه الأخلاقي والاجتماعي الذي ابتعد عنه. إنها هكذا ليست حرة إبداعية محلقة كالفكاهة. فالفكاهة عامة، والسخرية خاصة². أو بعبارة أخرى هي فكاهة غايتها أخلاقية بالدرجة الأولى. فالسخرية، محافظة تحاول أن تعيد الأمور إلى سيرتها الأولى. في الفكاهة خيال جامع، وفي السخرية إدراك قاصر، في الفكاهة مرونة وطلاقة وتعدد وكثرة. وفي السخرية صلابة وأحادية وقوالب أقرب إلى الجمود.³ فالسخرية إذا شكل من أشكال الفكاهة هدفها مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير. وهي بذلك تتبنى لغة النقد الهادف إلى التقويم والتخلي عن الأخطاء، "إن اللغة النقدية الساخرة لغة واصفة أولا وأخيرا، إذا فهي لغة الأزمة أو التآزيم ولغة النقد بامتياز"⁴. وإذ هي أسلوب نقدي له مميزاته الفنية، اعتبرت في الواقع بناء للحياة وحارسا للمثل العليا. وهي تعتمد إيقاع

1- نفسه، ص 38.

2- شاكر عبد الحميد، الموقع نفسه.

3- ينظر الموقع نفسه.

4- Radu Emescu « Cahiers Roumains D'études littéraires », ed Univers, Bucarest, N°4. 1974. P:5.

الآخر في حرج مقصود لدفع حرج أكبر، ورد خطر قائم أو متوقع، مما يعتبر عملاً إنسانياً شريفاً وسامياً¹. إن تمتع السخرية بخاصيتي الهدم والبناء لاحظها العديد من النقاد، أمثال إلفين كرنان (Alvin Kernan) إذ يرى أنه يوجد قطبان في السخرية: النسق الأخلاقي، والأسلوب اللعوب، هنا يكون الخيال النسبي هو الظاهر. والمعيار الأخلاقي هو المستتر، ترتدي مسوح الشياطين، تعمل السخرية موجهة أساساً إلى الهدم والفوضى والتدمير، بل إنها يمكن أن تكون شيطانية أو ترتدي مسوح الشياطين. تعمل السخرية على المستوى السيكولوجي المرتبط بالتوتر والشك والحيرة وعدم الاستقرار، مستوى اللايقين الذي يمتزج عنده أو يتصادم المحتوى الأخلاقي أو الشكل الهدمي التدميري ما بعد الحداثي العنيف من أجل العودة بالأخلاق والسلوكيات إلى شكلها المحافظ القديم الأثير. الفكاهة مجددة والسخرية محافظة². إن التخلص من الانفعالية هو ما يولد احتمالية الخطاب الساخر ويرفع الفرد فوق نفه وفوق الآخرين³. تختلف النظرة إلى السخرية إذاً عن الفكاهة بالنظر إلى الهدف الذي تسنده للعالم الخارجي، ذلك أنها تنشد تغييره، وتعود منه متألمة.

وإذا كانت السخرية فكاهة راقية فلائها تُنفر من الاعوجاج بالضحك الذي يتولد عنها، وهي "الهزء بشيء ما، لا ينسجم مع القناعة العقلية، ولا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عُرف الفرد أو الجماعة، "ففي كلِّ انقطاعٍ عن المؤلف شيء ما يثير الضحك"⁴. والحقيقة أنه ينبغي النظر إلى السخرية بوصفها أمانة، وليس

¹- حامد عبده الهوال: السخرية في أدب المازني 8، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

²- شاكر عبد الحميد، موقع مجلة الدوحة.

³- عبد النبي ذاك: مرجع سابق، 16.

⁴- أدونيس (علي أحمد سعيد): زمن الشعر 28، دار العودة، بيروت، مطبعة المتنبي، ط 1، 1972.

المقصود بذلك عدّها عرضاً، وإنما هي وسم يخفي بقدر ما يشف، فالسخرية بهذا المعنى هي إثارة الضحك الناجم عن مواقف تتعارض مع المعتاد، وتصطدم بالتقليدي، إنّها وليدة الغرابة والدهشة التي يأتي بها الموقف المُتَّحَم، على العقلاني المُنتَظَم، لذلك تستولد الضحك الآلي، الذي يأتي بمنزلة ردّ فعل أوّلي، وعفوي على انبهار المثل المرتبة في العقل، أمام موقف مفاجئ، يُعزّي ما اتفق على اعتباره مثلاً ويضعه -وجهاً لوجه- أمام نقيضه، وفي عبث هازل وسخرية لا ترحم، لأنها تحمل أعمق أنواع المواجهة والتعرية.¹ إن هذا المنحى العدواني في الخطاب الساخر، هو ما يجعلها تتأرجح بين قطبين متناقضين، وغايتين متنافرتين: الهدم والبناء. فمن الناحية الأخلاقية أيضاً ارتبطت السخرية بالخداع والإخفاء والاستهزاء، فالساخر مخادع لأنه يخفي حقيقته عن محاوره. فالسخرية مجافية للحقيقة لأنّ ظاهرها غير متطابق مع باطنها، وهي في نظر سقراط ضرب من الخديعة وإخفاء الحقائق، وهو ما يجعلها قريبة من الكذب وملتبسة به² وقد سعى جانكيليفيتش إلى رسم الحدود بين الساخر والكاذب، أي بين الأخلاقي واللاأخلاقي من خلال طبيعة وعي كل من الساخر والكاذب، والنوايا المخبوءة لكل منهما. فالوعي عند كليهما معقد وملئ بالأسرار، أو هو وعي متاهي. لكن وعي الساخر وعي طيب، في حين أن وعي الكاذب وعي شرير. وإذا كان الكاذب يحتقر مخاطبه المخدوع، فإن الساخر يعقد علاقة ود وتواصل بينه وبين مخاطبه لأنه لا يبحث عن مصلحة ذاتية كالكاذب³ فالسخرية بهذا المعنى شكل من أشكال الوعي الراقى، لأنها وعي منغرس في الواقع المعيش، غير أنه قادر على

¹- ينظر عكاري: مرجع سابق، ص 24.

²- زهير مبارك: المرجع نفسه، 22.

³- زهير مبارك، نفسه، 22.

الانفصال عنه والتعالي عليه من خلال فضح تناقضاته وكشف اعوجاجه في مسعى معرفي تربوي يدفع إلى التفكير في عالم أفضل غير متحقق. ولذلك يؤكد جانكيليفيتش على أن "السخرية وعي طيب ومرح، وليست وعيا ساذجا وبسيكا ومباشرا"¹. فالساخر يتقن التخفي والتلاعب بين الظاهر والباطن ومدارة الواقع دون التماهي معه.

لكن السخرية لا تعني مجرد الاستهزاء والانتقاص من اللامرغوب فيه والمبتذل. إنها بديل أخلاقي وإيديولوجي للآخلاق الرديء. فهي تقدم الزمان والفضاء البديلين، لأنها وعي انتقادي أو انتقاد واع يفضح الخطاب المضاد متفشيا سر حقيقة وهمه. وهي بذلك ترفد الباحث ومتلقيه بفرحة القصص الماكر من الأفكار المزيفة والمحنة. ويقدر ما تفتح للبسمة طاقة، تشرع طاقات البصر والبصيرة على الفجائعي والمريب والسلمي والاستيلابي.² من هنا كان الهدم والتهشيم في الخطاب الساخر، مرحلة ضرورية غايتها إقامة بناء جديد، بديل عما كان سائدا.

4- السخرية في الأشكال التعبيرية: جدل الهدم والبناء :

4-1- في مستوى الثقافة الشعبية/النكتة :

يعتقد أن سبب انتشار النكات بشكل كبير في مجتمعاتنا العربية قد يعود إلى معاناة هذه المجتمعات من احتقان على جميع الأصعدة، ومن ثم تضطلع النكات بدور تفرغ هذه الاحتقانات أو المشكلات الاجتماعية. ولو فتشنا عن المعاني اللغوية للفظ "نكتة" في لسان العرب لوجدنا معاني مختلفة لا يعطينا واحد منها المفهوم الحالي:

¹- V. Jankélévitch: *L'IRONIE* Flammarion; Paris, 1964; P:54.

²- ذاك: مرجع سابق، ص13.

- الأثر الحاصل من الضرب بقضيب.
- النقطة في الشيء تخالف لونه.
- العلامة الخفيفة.¹

فالنكتة شكل من أشكال تجلي السخرية في الخطابات العامة. والنكتة التي تعنى بجانب الانتقاد الواعي هي التي تندرج ضمن السخرية التي تعنيها، أما النكات التي لا تروم سوى الضحك غاية فتخرج عن هذا النطاق من الخطابات الساخرة الواعية "قد تستدعي السخرية ألوانا أقل عدوانية من التهمك مثل النكات التي تأتي كنوع من التهشيم والتعرية، بقصد الثأر السلمي من مفارقات تلامس الكرامة واليقين"².

يشير فيليب هامون (Philippe Hamon) إلى صعوبة تعريف النكتة فيقول: "ليس من السهل استنباط تعريف موحد للنكتة"³ والنكتة جنس من أجناس الأدب وهي آلية من آليات السخرية. و"النكتة حديث عن طرفين غير مرتبطين أو غير متوازيين ينتقل فجأة من الطرف المؤلف والاعتيادي إلى الطرف الاستثنائي المجهول وغير المتوقع، فيثير اللقاء في المتلقي وعيا مضحكا بالمفارقة من خلال المتعة التعويضية التي يمنحها له هذا اللقاء"⁴.

وتحتفظ النكات بأهمية خاصة في باب السخرية ذي النزعة الثأرية، لأنّ ثمة قوة مدمرة للنكتة من حيث قدرتها على الإفشاء والفضح. ويختلف دور النكتة

¹- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ن ك ت).

²- عكاري: مرجع سابق، ص 28.

³- Philippe Hamon: *L'ironie littéraire, Essai sur les formes de l'écriture oblique*, p.144.

⁴- بوعلی یاسین: بیان الحد بین الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط 1، 1996، 95.

باختلاف موقعها وطرق استخدامها، فأحيانا تورد بسداجة على شكل تلاعب بالألفاظ، لا يفني بالموقف، بل يزيده هشاشة ويقربها من السطحية، وأحيانا أخرى تتخذ موقعها البراق لتسطع من خلال موقف لا يُنسى.¹

ويعتبر فرويد (Sigmund Freud) النكات التي يطلقها الناس في أساسها نوعاً من "التطهير" أو المتنفس للمكبوت من العواطف. فليست النكتة على هذا النحو مجرد تسلية أو إثارة، ويميز (فرويد) بين نوعين من النكات: نوع حسن النية لا يؤدي، ونوع له هدف واتجاه وغاية يبتغي الوصول إليها، ثم إنه يفرق بين غايتين للنكتة: الهدم والتعريض والتهشيم والتعرية.² والنكتة الساخرة تقصد إلى تعبئة المعنى المراد إيصاله في زاوية لا يطالها إلا الأذكىاء، المتنبهون، وبذلك تشكل ثأراً سلمياً يؤكد التفوق العقلي للساخرين الذين يرتاحون إلى سلامتهم العقلية في مواجهة مقترفي الأخطاء. وما يؤكد على دور النكتة في التنفيس عن المكبوتات قول هنري برغسون (Henri Bergson) "لا مُضْحَكٌ إلا ما هو إنساني هي محاولة قهر القهر وهتاف الصامتين"³. فالنكتة بهذا المعنى تُعزّي مقترفي الأخطاء من الكياسة الذهنية، فيُشْرَحُون بلاهتهم وأخطاءهم على ضوء العبث الساخر الذي يشكّل في أحد وجوهه صَحْكا على سبيل الاحتجاج، يلاحق بسخرية هازلة الأخطاء النافرة في المجتمع، وهذا النوع من السخرية المُقارِفة ذو بناء درامي لأنه يُخفي صراعاً بين المثل والقيم المتناقضة.

لقد طور العرب بشكل واسع وراق فن النكتة، واحتفل بها كبار فلاسفتهم

¹- نقلا عن عكاري، مرجع سابق، 45.

²- نقلا عن ياسين، مرجع سابق، 29.

³- هنري برغسون: الضحك 24، تر: سامي الدروبي وعبد الله النائم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

دت، دط .

كالجاحظ في كثير من كتبه: البخلاء والحيوان. وكتاب "أخبار المحققي والمغفلين" لابن الجوزي، وقبل هذا كله كتاب "ألف ليلة وليلة". ويشير بوعلبي ياسين¹ في دراسته المنفردة للنكتة إلى أنها تنقسم إلى ستة أنواع:

1- نكات هزلية، دافعها اللعب وغايتها التسلية والترويح عن النفس، لا يعيقها سوى المستوى الثقافي للوسط الذي يتناولها.

2- نكات تربوية تتحدد بالفهم التربوي لدى الوسط المعني.

3- نكات عصبوية تقوم على الولاء للذات الجماعية ضد الذوات الأخرى.

4- نكات عرضحالية غايتها التنفيس عن ضغوط حياتية (اقتصادية، سياسية...) وتلقى قبولا بقدر تعبيرها عن الوسط الذي تلتقى فيه.

5- نكات شهوانية بغاية التعويض عن حاجات غير ملبأة.

6- نكات تتعلق بالموت والمصير والإيمان ودافعها الخوف والرجاء وهدفها السلوان وتقبل القدر المحتوم.

والحقيقة أن النكتة صارت جزءاً رئيساً في محاورات الناس في منابرهم المختلفة، فانتقلت من الأماكن المغلقة إلى أماكن مفرطة في الانفتاح مثل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة على الانترنت. ولهذا صار أمر تحليلها والبحث في خطرها غاية في الأهمية، وقد أوضح سعود البلوي -وهو كاتب متخصص في التربية الإعلامية- أن ظاهرة النكتة والسخرية هي ظاهرة في الثقافة العربية، مضيفاً أن وجودها يشير إلى أن هذه الثقافة تعاني من شيء ما، فقد يكون خلف هذه النكتة، أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية، ولفت إلى أن تناول النكتة قد يكون

¹- ياسين: مرجع سابق، 48-49.

له في بعض الأحيان أبعاد سلبية على بعض أفراد المجتمع الواحد، مضيفاً أن ذلك قد يؤدي إلى أن تظهر الصورة النمطية لهذا المجتمع على شكل نكتة أو سخرية، موضحاً أنها إذا زادت عن حدها تسببت في نشوء مشكلات اجتماعية من بينها العنصرية والإقلاق من شأن الآخر¹. من هذا المنطلق نجد أن النكتة خرجت عن كونها دعابة ترويجية تهدف للتسلية والفكاهة إلى سلاح خطير من أسلحة السخرية لما تتمتع به من القدرة على الانتشار والرواج ومن ثم التداول.

4-2- في مستوى الثقافة النخبوية/الإعلام-الكاريكاتير الباروديا :

الكاريكاتير :

يرتبط فن الكاريكاتير بالسخرية ارتباطاً وثيقاً، وعده البعض وجهاً آخر للسخرية. والهجاء الكاريكاتير فيأبسط تعريفاته هو مقال تحل الخطوط فيه محل الكلمات، فهو تعبير عن حدث أو فكرة باستخدام موهبة الرسم والتفكير المنطقي القادر على تحويل الأفكار إلى رموز مكتوبة بقصد لفت الانتباه إلى قضية بعينها وتبسيط الضوء على موضوع بعينه بقصد التصحيح والتقويم.

هذا الفن البصري قوي التأثير إلى درجة أن بعض الصحف صارت تستمد شهرتها من رسامي الكاريكاتير. ولهذا يعتبر فن الكاريكاتير من أكثر الفنون التشكيلية قرباً لطبيعة الشعوب الفكهة، فهو من الفنون الراقية التي يفترض أن تعود على المجتمع بفوائد جمّة، كونها تنتقد الأوضاع الخاطئة بأسلوب يقوم على إثارة ضحك المتلقي ومن ثم انتباهه.

¹- موقع واحة الحاسب: "أسباب شيوع النقد والسخرية في وسائل التواصل الاجتماعي في المجتمع السعودي" walhaseb.com

قبل خمسين سنة لم يكن للكاريكاتير هذه الأهمية، بل كان ينظر إليه بوصفه فنا من الدرجة الثانية، لكنه مع انتشار وسائل الإعلام الجديد، تحول من مجرد زاوية رأي في صحيفة، إلا رسالة غاية في الخطر والأثر والقوة.

فعادة ما يستند الخطاب الإعلامي المكتوب في بناء مصداقية الخبر إلى الصورة الفوتوغرافية، بيد أن المنابر الإعلامية بشكل عام صارت لا تستغني عن الصورة الكاريكاتيرية، بحيث صارت تجد في هذا الحيز المميز مجالاً للتعبير عن الرأس بأسلوب نوعي يؤثر في المتلقي ويستميل إدراكه بشكل ملفت.

فالصورة الكاريكاتيرية تضاهي في كثير من الأحيان مقالة رئيس التحرير أو المعلق اليومي، فتجد غالبية القراء المطلعة تلقي نظرة سريعة على المانشيت، وعنوان الافتتاحية، ثم تنقل نظرها إلى الرسم الكاريكاتوري حيث يتمعن فيه القراء ويستوعبونه ويفهمون خلفياته ومقاصده، كل حسب ثقافته، ومعتقداته¹ "إن فن الكاريكاتير يمتاز عن باقي الفنون الصحافية، بأنه عالم مفتوح يسمح لأي قارئ الإطلاع على المشهد السياسي القائم، كما يعبر بعمقهما آل إليه المزاج الشعبي تجاه سوء الفهم الناتج عن اختلاط الأمور السياسية بالاقتصاد والاجتماع. ويشكل نوعاً من الخروج على السلطة والمألوف في النقد بين التفسير والشرح"².

والحقيقة أن الكاريكاتير منذ ظهوره بوصفه فناً مستقلاً، على أعتاب القرن الثامن عشر، انغمر في الصراعات الاجتماعية والسياسية حتى أذنيه³.

¹- هشام جابر: النكتة السياسية عند العرب، بين السخرية البريئة والحرب النفسية 276، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 2009.

²- نفسه، 276.

³- ينظر ممدوح حمادة، فن الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة 134، دار عشتروت للنشر، دط، دت.

الباروديا : (المحاكاة الساخرة)

شكل من أشكال الإعلام الساخر انتشر على المحطات الفضائية وعلى اليوتيوب خاصة. وهي فيديو هات مصورة يقوم فيها الساخرون -وغالبيتهم أفراد غير متخصصين في الإعلام- بتقليد شخصيات أو نقد مواقف أو أوضاع سياسية واجتماعية بأسلوب يعتمد على المبالغة والإضحك، ونقد الأوضاع السياسية والاجتماعية.

تستقطب الباروديا أو المحاكاة الساخرة جماهير عريضة تتجاوز الملايين، ومن مختلف الطبقات والفئات العمرية، ذلك أنها تتخذ الإضحك وسيلة لإيصال الفكرة، ولا يمكن أن يستهان بخطر غواية الضحك وأثره على الناس.

5- مسألة حدود السخرية :

وبما إن لغة الساخر لغة تتمتع بدرجة من الحرية التي تكسر الحدود بل قد لا تعترف بوجودها من الأساس. وإذا كان السخر السياسي مقبولاً -إلى حد ما- بحيث يدخل في باب النقد والتنقيص، إلا أن السخر إذا لامس حدود الدين واللون والجنس، فإن مسألة التعاطي معه تطرح عديد المشاكل. ولا يحدث هذا في الثقافة العربية الإسلامية فحسب بل حتى في الثقافات التي تدرج حق السخر ضمن مبدأ حرية التعبير، لكنها في الوقت ذاته تجرم السخرية إذا ما تعاطت مع موضوعات بعينها، مثل مسألة الأديان والأعراق.

تُناقش إذن مسألة جواز السخرية وجدواها، بشكل قوي في الساحة الإعلامية المعاصرة، بسبب انتشار الظاهرة في وسائل الإعلام من جهة، وبسبب ضبابية تحديد مفهوم حرية التعبير من جهة أخرى، حيث يرى الدكتور مسعود صبري أنه من الخطر اعتبار البرامج الساخرة لا علاقة لها بالدين، وأن الحديث

عن بيان رؤية العلماء فيها نوع من الاعتداء على حرية الإعلام، وأن العلماء يحشرون أنفسهم في كل صغيرة وكبيرة، ويدخلون الدين في أشياء لا علاقة لها بالدين مطلقاً.¹ بل ويدعو إلى وجوب التفريق بين السخرية والنقد الذي هو بحاجة ملحة لا غنى للناس عنها، وهو ما يعبر عنه بلغة الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.² ولا يجب إغفال خطر هذا الشكل من الخطاب، فمن الضروري البحث في أسباب هذه الجماهيرية التي تحققها البرامج الساخرة ولا تحققها -بالمقابل- البرامج التي تتبنى الأسلوب الجاد طريقاً لها.

يقول أحمد الزغبى "استطاع الإعلام الساخر أن يكسب قلوب ملايين من الشعوب العربية، عندما شعروا أنه إعلام "شعبي" ويحمل في طياته ألماً "شوارعياً" ليس بالمعنى السلبي... وإنما بالمعنى الإيجابي"، لكنه -في الوقت ذاته- يؤكد على ضرورة ضبط هذا الإعلام "عندما نتكلم عن معايير تحكم الإعلام الساخر، فإننا بالطبع لا نتكلم عن معايير "دستورية" أو "فرمانات" مكتوبة على الإطلاق، وإنما هي معايير مهنية وأخلاقية يجب أن يلتزم بها من يلبس وجع الشارع ويستعير لسانهم وينبض بوجدانهم سواء كان ما يقدم مرئياً أو مسموعاً أو مكتوباً... ومن هذه المعايير احترام الديانة والمعتقد"³ فحرية التعبير لا تعني حرية السباب والشتم والمعايرة، إذ كل نشاط إنساني لا بد له من ضوابط ومعايير، يؤكد ذلك الباحث نفسه في قوله "أنا أؤمن بأن أي شيء في هذه الدنيا لا تحكمه

¹- مسعود صبري: "الإعلام الساخر لا لون ولا رائحة"، الموقع: shabab.alwaei.com التاريخ: 30-5-2015، التوقيت: 55:19.

²- المرجع نفسه.

³- مسعود صبري: "الإعلام الساخر لا لون ولا رائحة"، الموقع: shabab.alwaei.com التاريخ: 30-5-2015، التوقيت: 55:19.

معايير وضوابط حتماً سيصبح الابن الشرعي للفوضى والفلتان ثم التهاوي والسقوط. وعندما تتكلم عن الإعلام بشكل عام والإعلام الساخر بكل خاص، فإننا نتكلم عن أخطر كائن خطابي يحتل صدارة "الميديا الجديدة" وهذا الكائن إذا لم يحمل رسالة وهدفاً في مضمون طرحه تبقيه على حرته والتزامه الفطري والمهني، فإنه سيتحول إلى كائن مفترس".¹

والسخرية الإيجابية إذا، هي التي تفوق بوعيا إجمالاً ما يمكن أن يتسرب إليها من اللاوعي، إذ إنها تتعامل مع المسخور منه بكثير من الاتزان، فلا تنتقم منه لحقد تربى في صدر صاحبها... إنها السخرية التي لا تضع معها القسوة، لكن هذه القسوة لا تصل حد النزق.² فالحد الفاصل بين الأثرين المتناقضين للسخرية شديد الدقة، بل إنه قد يخضع لنوايا الساخر نفسه، "وهنا يبرز دور الظرف الذي يحاول أن يخفف وطأة النقمة، وأن يحول المتلقي إلى نحو من التسامح من المسخور منه... إن هذا التعاطف الأكثر تواضعاً وتسامياً في آن والذي يفترض دائماً، في الانتقال من الخبث إلى الرحمة بعض الدرجات من وعي الذات"³. "وتجدر الإشارة إلى أن الإغراق في الإيلام والإسراف في تضخيم السخرية يفقدها وقعها، ومضمونها الإنساني، في معظم الأحيان، كما أنه يعكس ويقرب الأدوار فيها، فبدلاً من أن يسخر الناس من الساخر والضحية، فإنهم ينقلبون عليه ويصبح هو مدعاة لسخرتهم وإن كان مجرد منظم للمشهد إذ يأملون"⁴. فالسخرية تدخل ضمن النقد اللاذع "والنقد اللاذع حكم حاد، أو وصف قاس، مباشر أو

1- نفسه 30-5-2015، التوقيت: 55:19.

2- نفسه، 19.

3- مسعود صبري: "الإعلام الساخر لا لون ولا رائحة"، الموقع: shabab.alwaei.com التاريخ: 30-

2015-5، التوقيت: 55:19 ص 19.

4- Robert Escarpit *l'humour*, Paris presses universitaires de France. 1975, p.106.

غير مباشر، يوجهه شخص باعتبار أسباب موضوعية أو ذاتية إلى طرف آخر¹. إن هذا الملمح الذاتي في السخرية حتى وإن كانت ناقدة هي التي أوحى بملمحها غير الأخلاق، وقد تعرف بعض نقاد الحداثة وجود تناقض آخر ملازم للسخرية ألا وهو أن دافعها الآخر ليس سوى مجرد قناع يستخدم من أجل متعة أكثر بدائية بعيدة عن الأخلاق كلها، متعة تعيد الإنسان إل عالمه الأول الذي كان يتمتع فيه بالحرية، لكنه كان يشعر فيه بالخوف. هكذا قال ويندهام لويس (Wyndham Lewis) إن السخرية العظيمة ليست أخلاقية الطابع أبداً. إنها قد تدمر الأخلاق من أجل أن تصل إلى متعة متفككة حرة باعثة عل السرور². تحيل نظرتة هذه على درجة حادة من السخرية تصل حد الإيذاء، والحقيقة أنه كلما ازداد التناقض من حول الساخر كلما أفضى ذلك إلى عدوانية السخرية ويأسها من تغيير الأوضاع، إذ يفترض في السخرية الإسهام في تعديل العالم وتوجيهه ووجهة الحق والخير، إذ يكتسب خطاب السخرية تأثيراً هاماً ويؤدي دوراً فاعلاً في السياق الاجتماعي بسبب تطبيع تداوله على نطاق شعبي واسع، مرده تكنولوجيا الاتصال الجديدة التي عممت الخطابات مهما كان نوعها وجعلتها بين يدي المتلقي بسرعة فائقة كاسرة حدود المكان، مكتسبة قوة كبيرة قد لا يتفادى خطرهما، فليس عجباً أن يتساءل بعض الباحثين في مجال الإعلام عما إذا أصبحت وسائل الإعلام الجديد ضحية نجاحاتها، بحيث صارت واثقة من نفسها أكثر من اللازم فنسيت القوانين المهنية والأخلاقية التي التزمت بها³.

1- سمير شريف استيتية: اللغة وسيكولوجية الخطاب، بين البلاغة والرسم الساخر 72، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

2- شاكر عبد الحميد، موقع سابق.

3- ينظر فرنسيس بال: الميديا 108، ترجمة فؤاد شاهين، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

وإذا لم تتحكم وسائل الإعلام الجديدة في المادة الساخرة التي تعرضها على الجماهير، بحيث تحولها إلى مادة ناقدة هدفها الأسمى تقويم الاعوجاج الذي قد يقع فيه الفرد كما الجماعة، فإن ثمة انعكاسات بالغة الخطورة، على المجتمع بحيث تتسبب في إثارة الضغائن والأحقاد بين الناس، وتبلد الأحاسيس، ناهيك عن أثرها السلبي في بناء الأخلاق القويمة والحث على الاستمساك بها. فالتماذي في السخرية واستمراءها اجتماعياً، كفيل على المدى الطويل أن يميئ التعاطف في النفوس، ويلهب لذة الاسترواح والانغماس في القهقهات والضحكات من كل شيء وعلى كل شيء، لينحدر الذكاء العاطفي القائم على اللين والتفاعل مع المحتاج والمهوف، إلى غباء وبلادة، تتمظهر بشكل القسوة والغلظة، مفككة المجتمع أكثر فأكثر¹. ولعل المعيار الأفضل في قياس مدى إيجابية السخرية أو سلبيتها يكمن في ضرورة احترام المتلقي، ولن يتم ذلك إلا من خلال احترام وعيه وذكائه ومشاعره، والابتعاد عن الاستخفاف بموضوعات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون مجالاً للسخرية من مثل: الديانة والمعتقد والحلقة والجنس واللون.

¹- عاصم المحرمي: "السخرية المتوحشة وتداعياتها على المجتمع" موقع معاصرون: moaseron.wordpress.com. التاريخ: 2015-6-13. التوقيت: 55:20.

خاتمة :

ليس الظرف والفكاهة والضحك والدعابة غايات السخرية، بل هي صفات يتمتع بها الخطاب الساخر، كي يحول مضمونه إلى استراتيجية نقدية تواجه العالم بتناقضاته وعنفه بسلاح السخرية. ويمكن تلخيص نتائج الدراسة في النقاط الآتية:

- السخرية مفهوم ذو دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية.
- السخرية استراتيجية خطابية تقوم بنيتها الأساس على مبدأ الضحك.
- أمست السخرية وشما للخطاب الثقافي العربي المعاصر بما في ذلك الأدبي والإعلامي.
- في بعدها الأخلاقي، تثير السخرية في الثقافة العربية الإسلامية كثيرا من التوجس لما في الوعي الأخلاقي العربي الإسلامي من استشعار حرمة فعلها/اقترافها.
- ليس بالإمكان التعاطي مع عالم يقوم على المتناقضات إلا من خلال العين الساخرة.
- إذا كانت السخرية تقوم على مبدأ الهدم والتشيم، فإن ذلك لا يجب أن يكون غايتها، وإلا تحولت عن مهمتها في تقويم الاعوجاج الأخلاقي.
- إن الهدم في السخرية ليس هدفا بحد ذاته، بل هو هدم يروم بناء جديدا صلبا يقاوم الانحراف ويجارب التناقضات.
- نهى الإسلام عن السخر الهازئ النابع من النفس الحاقدة المريضة، ومن ثم ربط السخر بنوايا الساخر.
- عد الإسلام السخر سلاحا بيد الإنسان لا يوظفه إلا إذا كانت غايته في ذلك رد الظلم أو المعاملة بالمثل.

مراجع البحث :

● باللغة العربية :

- أحمد الحوفي: الفكاهة، أصولها وأنواعها في الأدب، نهضة مصر، دط، 2001.
- أرسطو: فن الشعر، ترجمة إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو، د ط، 1989م.
- أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خبار، دار العلم، بيروت، د ط، د ت.
- بوعلي ياسين: بيان الحد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 1996.
- الجاحظ (عمرو بن بحر 255هـ): البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، دط، دت.
- حامد عبده الهوال: السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
- (ابن) رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1973.
- زكريا إبراهيم: سيكولوجية الفكاهة والضحك، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة د ط، د ت.
- زهير مبارك: السخرية في الرواية العربية، مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، قابس، تونس، ط1، 2011.
- سمير شريف استيتية: اللغة وسيكولوجية الخطاب، بين البلاغة والرسم الساخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

سوزان عكاري: السخرية في مسرح أنطوان غندور، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، دط، 1994.

سيمون بطيش: السخرية والفكاهة في أدب مارون عبود، دار مارون عبود، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

عبد الباقي يوسف: فلسفة السخرية، الدراسات والبحوث، العدد 558 آذار 2010.

عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1986.

عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، المطبعة العصرية، مصر، ط6، 1960.

عبد القادر هني: دراسات في النقد الأدبي عند العرب، من الجاهلية حتى العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

عبد النبي ذاكر: العين الساخرة: أقنعتها، وقناعاتها، في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، المغرب، ط1، 2000.

(أبو) الفرج الأصفهاني: الأغاني، مكتبة دار الكتب المصرية، دط، دت.

فرنسيس بال: الميديا، ترجمة فؤاد شاهين، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

محمد العبد: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، مكتبة الآداب القاهرة، ط2، 2007م.

مدوح حمادة، فن الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، دط، دت.

(ابن) منظور (جمال الدين محمد بن مكرم، ت 711هـ): لسان العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986م.

نبيل راغب: الأدب الساخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة د ط، 1998م.

نزار عبد الله خليل الضمور: السخرية والفكاهة في النثر العباسي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2012.

هشام جابر: النكتة السياسية عند العرب، بين السخرية البريئة والحرب النفسية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 2009.

هنري برغسون: الضحك، تز: سامي الدروبي وعبد الله الدائم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دت، دط.

● باللغة الأجنبية :

Philippe Hamon: l'ironie littéraire Essai sur les formes de l'écriture oblique, Hachette supérieur 1996, paris, cedex.

Pierre Schoentjes: Poétique de l'ironie Edition du seuil, 2001.

Radu Emescu « Cahiers Roumains D'études littéraires, ed Univers, Bucarest, N 4. 1974.

Robert Escarpit: l'humour, Paris. presses universitaires de France. 1975.

Vladimir. Jankélévitch: L'IRONIE Flamarion; Paris, 1964.

